دروس الحديث الشريف الشيخ الطبيب محمد خير الشعال

سلسلة الأحاديث القدسية

((حديث الأولياء(3)))

الإكثار من النوافل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

يقول الله تعالى في الحديث القدسي:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)) [البخاري].

نحن مع حديث الأولياء، وفيهم ثلاث صفات:

الصفة الأولى: أنهم لا يعادون وليّاً.

والصفة الثانية: أنهم يجتهدون في الفرائض.

الآن رتبة أعلى عند الأولياء وهي الصفة الثالثة: أنهم يجتهدون في النوافل.

((...وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)).

وكما ذكرنا، لو أن رب العالمين خلقنا، وما أرسل كتاباً، ولا رسولاً، وأراد أحدنا أن يتقرّب إلى الله، ماذا يفعل؟ لا نعرف...لعل رجلاً يقتل نفسه، ويقول: لعلّ الله يحب أن أفعل هذا!.لعل رجلاً يرتكب المعاصي، يقول: لعلّ الله يحب أن أفعل هذا!.

نحن لا نعرف شيئا يقرّبنا إلى الله تعالى، إلا ما عُلّمنا إياه، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: ((**وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ**...

إذا أردت أن تتقرّب إلى الله عز وجل فعليك: **بالنوافل**.

النافلة في اللغة معناها: الزيادة، فكل ما زاد على الفريضة يسمى **نافلة**.

صلاة التراويح ليست فرضاً، صلاة قيام الليل ليست فرضاً، العمرة عند الجمهور ليست فرضاً، صيام أيام الاثنين والخميس في غير رمضان ليست فرضاً، دفع مال من الصدقات زائد عن الزكاة ليست فرضاً، الإكثار من قراء القرآن، الإكثار من برِّ الخلائق وقضاء حاجاتهم،كل هذه الأفعال وأمثالها من أعمال الخير والإحسان كلها تسمى: **نوافل**.

((**وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ**...، هذه صيغة لا يزال، تحمل معنى الاستمرارية، لذلك كلما ازداد الصالحون قرباً من الله، كلما ازدادت أعمالهم الصالحات.

((...**لا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**...

نحن كلنا يحب الله فلو سألنا: من يحب الله لرفع كل الناس أيدهم، لكن السؤال الأهم: **من منا يحبه الله ؟!**.

((...**لاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**.. هذه مرتبة تسمى مرتبة **المحبوبية**، أن تكون محبوباً عند الله، وإذا صرت محبوباً صرت ترى ما لا يرى غيرك، وتسمع ما لا يسمع غيرك، وتعلم ما لا يعلم غيرك، وتفهم ما لم يفهمه غيرك.

مرّة سيدنا عمر رضي الله عنه كان واقفاً على المنبر في يوم الجمعة يخطب بالمسلمين في المدينة المنورة، وكان قد أرسل قبل أيام جيشاً لفتح بلاد الشام،كان قائد هذا الجيش سارية بن زنيم.

سيدنا عمر رضي الله عنه يخطب على المنبر، والناس جلوس، وهو في الخطبة يصرخ سيدنا عمر قائلاً: **يا سارية الجبل الجبل**، ثم يعود إلى الخطبة.

الجالسون قالوا: ما به عمر؟ لماذا يصرخ على سارية؟ وسارية مع الجيش؟ وعندما نزل عن المنبر، قالوا: يا أمير المؤمنين كنت تصرخ على سارية على المنبر فما الأمر؟ قال: وأنا واقف على المنبر في المدينة المنورة، عرضت لي تخوم الشام، –رأيت الشام فلسطين ولبنان– ورأيت جيوش المسلمين بقيادة سارية، ورأيت الروم قد كمنوا لهم وراء الجبل، فأحببت أن أحذّرهم من الجبل!.

الجبل الجبل: هذا اسم منصوب على التحذير.

فلما كان بعد أشهر، وعاد جيش المسلمين، الذين استمعوا لخطبة سيدنا عمر رضي الله عنه، أرادوا أن يعلموا ما الأمر، فاستخبروا الجيش، فقالوا: نريد أن نسألكم بعد خروجكم من المدينة المنورة بأسبوعين، هل حدث معكم شيء غريب؟ فقال أفراد الجيش: نعم، لقد سمعنا صوت أمير المؤمنين من السحاب، يحذّرنا من الجبل.

بأي أذن سمع هؤلاء هذا النداء وهذا الاتصال ؟!.

فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، يُسمِعُك الله ما لا يسمع غيرك، وبأي عين رأى ؟! **كنت بَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ!**.

أحيانا ترى ابنك مع صاحب له، وأنت لا تعرف هذا الصاحب مطلقاً، وأنت أول مرة تراه، عندما يأتي ابنك إلى البيت تقول له: يا بني ما اسم هذا الذي كنت تمشي معه؟.

فيقول لك: فلان، تسأله عن أبوه؟ فتقول له: يا بني أرجوك لا تمشِ معه مرة أخرى، أنا لم أرتح له، يسأله الابن: أبي هل تعرف عنه شيئاً؟ تعرف والده؟ تعرف أسرته؟

يقول الأب :أبدا أنا أول مرة أراه، لكن أنا لم أرتح له.

بعد فترة يظهر أن هذا الولد رفيق سوء، كيف عرف الأب؟ بأي عين رأى؟.

أحيانا تشاور والدتك بمشاركة رجل في عمل تجاري، فتقول لها: أريد أن أشارك فلاناً من الناس، وأمك لا تعلم الشركات، ولا تعلم الأشخاص، ولا تعلم بالتجارة، فتقول لك: والله يا بني اترك هذه التجارة، ولا تدخل بها، وبالفعل يحدث مشكلة من وراء هذه الصفقة!.من الذي أخبرها؟!.

كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا..

سيدنا موسى ضرب رجلاً فقضى عليه ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص:15]، فسقط قتيلاً بأي قوة ضَربَ سيدنا موسى!.

في غزوة حنين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أمسك كفّاً من رمل، وقال: **شاهت الوجوه**، ورماها باتجاه المشركين، فيقول بعض المشركين الذين أسلموا بعد الغزوة: **((ما منا من رجل إلا دخل في عينيه من ذلك الرمل))**!.

الله عز وجل قال في القرآن: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:17]. هذا الذي يجري لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الممكن أن يكون لك منه نصيب، من الممكن أن يُلقي الله الخوف منك في قلوب من يعاديك.

يقول لك: والله أنا لا أعلم، لم أشعر بأني خائف أمام هذا الرجل، ولا أستطيع أن أؤذيه.**كيف ذلك؟**

فإذا صرت محبوباً عند الله، تسمع بسمعه، وتبصر ببصره، وتتيسّر كل أمورك تجد أنك في أي مشروع تريد الدخول به، الناس يتنافسون لمشاركتك يقولون: والله لا أعلم هذا الرجل أينما ذهب، يجد الأبواب مفتوحة أمامه.

ما السر في هذا الكلام؟ **السرُّ :كثرة النوافل.**

الصالحون لهم أوراد في الليل، يوجد ساعات في الليل الأخير، ساعات للمناجاة، والله لو ملّكناك الدنيا، لاسترخصتها أمام تلك الساعات، أحيانا تقف بين يدي الله تصلّي ركعتين بينك وبين الله، تشعر بالسرور والتجلّي، والقرب من حضرة الله تعالى.

احرص على ركعتي قيام الليل، احرص على مجلس تذكر الله تعالى به، أحياناً ترفع يديك إلى السماء لتدعوا، وصديقك ينتظرك عند الباب، لكن تشعر عندما تبدأ بالدعاء، وكأن الكلام يُلقى على لسانك، استمر بالدعاء، فهذه لحظة فتُحَ فيها باب، فلا تغلقه دونك!.

أكثِرْ من الأعمال الصالحة، أكثِرْ من النفقات، إذا رب العالمين وسّع عليك، فيجب عليك أن توسّع على العباد.

أورد الإمام ابن كثير في كتابه البداية والنهاية قصة رائعة، تدل على عظمة وقدرة الله عز وجل، فالله عز وجل لا يعجز على أن يبدل لك أمور الكون، إذا عاملته كما يريد بالفرائض والنوافل.

هذه الحادثة جرت في السنة السادسة عشرة للهجرة، في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

كان عمر رضي الله عنه قد أرسل سيدنا سعداً بن أبي وقاص لفتح المدائن –مدائن كسرى ، وهي بعد نهر دجلة– ، وكسرى مملكة كبيرة فارسية، وعندهم حضارة وعندهم

ثقافة وعندهم أسطول بحري وعندهم فنون عالية، والعرب المسلمين خرجوا من مكة والمدينة، وكل واحد منهم على فرسه، وكل ما يملكه الثياب التي يلبسها، وبعض الأمتعة، والقليل من التمر.

يقول ابن كثير في أحداث السنة السادسة عشرة للهجرة:

لما فتح سعد نهر شير – اسم مدينة قبل دجلة– واستقر بها، لم يجد فيها أحداً من الفرس، فقد هربوا إلى المدائن –وراء دجلة– وركبوا السفن، ووضعوها قريبة من الساحل، ولم يجد سعد رضي الله عنه شيئاً من السفن، وتعذّر عليه تحصيل شيء منها بالكلية، وقد ازداد نهر دجلة زيادة عظيمة، واسودّ ماؤه، وأُخبِرَ سعد بأن كسرى عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن إلى حلوان، أي أنه عازم على الهروب .

المسلمون معهم الخيول وخيولهم مدرّبة في مكة والمدينة، حيث لم يروا نهراً ولا بحراً، وصل سعد إلى شاطئ دجلة، وهناك قام فخطب، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

"إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا، وليس وراءكم شيء تخافون أن تأتوا منه، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم، قبل أن تحصدكم الدنيا، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم" فقالوا جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل.

هو يريد أن يخترق دجلة، فندب سعد الناس إلى العبور، وهو يقول: من يبدأ فيفتح لنا الطريق؟ وذلك لأن الفرس يقفون على الشاطئ الثاني، ويريدون أن يرموهم بالسهام، ليجوز الناس إليهم آمنين، فانتدب عاصم بن عمرو، وذو البأس من الناس، وهم قريب من ستمائة شخص، فأمّر سعد عليهم **عاصم بن عمرو** ووقفوا على حافة دجلة فقال عاصم: من ينتدب معي ليكون قبل الناس دخولاً في هذا البحر؟ أحجم الناس عن الخوض في

دجلة، فتقدم رجل من المسلمين، وقال: أتخافون من الخوض في دجلة ! ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:145]. ثم أقحم فرسه فيها، واقتحم الناس بعده، وقد تفرّقوا إلى فرقتين: أصحاب الخيل الذكور، وأصحاب الخيل الإناث، فلما رآهم الفرس وهم يطوفون على وجه الماء، قالوا: ديواناً ديواناً يعني: مجانين مجانين، ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنساً بل تقاتلون جِنّاً وعفاريت، ما هذا! أناس يمشون على الماء!.

ثم أرسلوا فرساناً منهم في الماء، ليلتقوا أول المسلمين، ليمنعوهم من الخروج من الماء، فأمر عاصم بن عمرو أصحابه أن يشرعوا لهم الرماح، ويتوخّوا الأعين ففعلوا ذلك بالفرس، فقلعوا عيون خيولهم، فرجعوا أمام المسلمين، حتى خرجوا من الماء، وتبعهم عاصم وأصحابه، فساقوا وراءهم، حتى طردوهم عن الجانب الآخر، ووقفوا على حافة دجلة، ونزل بقية أصحاب عاصم (من الستمائة) في دجلة، فخاضوها حتى وصلوا إلى أصحابهم من الجانب الآخر، فقاتلوا مع أصحابهم حتى هزموا الفرس عن ذلك الجانب.

وكانوا يسمّون الكتيبة الأولى: **كتيبة الأهوال**، وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا (وهذه كلمة السر):

نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم اقتحم بفرسه دجلة، واقتحم الناس، ولم يتخلف عنه أحد،كل الجيش نزل إلى الماء، فساروا في دجلة، كأنما يسيرون على وجه الأرض، حتى مَلئوا ما بين الجانبين، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء، كما يتحدثون على وجه الأرض، هكذا يمشون على وجه الماء، ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم، حتى لم يسقط منهم شيء من الأمتعة، غير

قدح من خشب لرجل يقال له: مالك بن عامر، وقد كانت علاقته رثّة، فأخذه الموج، فدعا صاحبه الله عزَّ وجلَّ، وقال: اللهم لا تجعلني من بينهم الذي يذهب متاعي، فرده الموج إلى الجانب الآخر الذي يقصدونه، فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه!.

فإذا تعاملت مع الله بطريقة خاصة، رب العالمين يغيّر لك قوانينه، ففي قانون الطبيعة: لا يمكن المشي على الماء، لكن رب العالمين هو الذي وضع هذا القانون، أنت عامل رب العالمين كما يريد، فإذا احتجت أن تمشي على الماء كان لك ذلك!.

سيدنا موسى عندما لحقه فرعون مع جنوده، موسى وصل إلى جانب البحر، ونظر وراءه فوجد فرعون، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون !(والله سنموت).

قال: **كلا إن معي ربي سيهدين**.

فأمره الله أن يضرب بالعصا على البحر، فضرب، فانفلق البحر وصار كالشارع!.

رب العالمين يحوّل لك البحر إلى أرض تمشي عليها، ويحوّل الأرض إلى بحر، ويغيّر لك القوانين إذا عاملته كما يريد، **فهو صاحب هذا الكون**.

لذلك تعالوا نقبل على الله سبحانه وتعالى بطريقة صحيحة، فلا يعقل بعقل، ولا بأرقام أن يفتح المسلمون نصف العالم القديم أبداً، لا يعقل أن يصبح عمر بن الخطاب أمير لمملكة طرفها في الصين، وطرفها الآخر في المحيط الأطلسي !.

بالمقابل نجد فلسطين محتلة منذ ستين عاماً، والمسلمون عددهم يزيد عن المئتي مليون، ولم نتمكن من تحريرها، كيف هؤلاء فتحوا الدنيا؟ ولم يكن عندهم بروفيسور بالطب، ولا بروفيسور بالهندسة، ولا اختصاصي برمجة لغوية عصبية، ولا عندهم.... ، لكن تعاملوا مع الله كما يريد، فغيّر الله لهم قوانين الكون، فكانوا: **خير أمة أخرجت للناس**.

انظروا آخر القصة فجعل سعد يقول عندما رأى سعد جيشه يمشي على وجه الماء: **حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه**-الذي يوالي الله فإن الله سينصره- **وليظهرن الله دينه، وليهزمن الله عدوه.**

الآن دققوا الانتباه في هذه الكلمات: **إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات.**

فنحن لو رفعنا الآن الظلم فيما بيننا، وجعلنا حسناتنا أكثر من سيئاتنا، فإن الله يكون معنا في المعركة، سيكون معنا بكل معاركنا، بأمور حياتنا، يدّبر لك أمورك في أسرتك.

أحيانا يقول الرجل: والله لا أعرف كيف أتصرف مع زوجتي!، أحيانا زوجة تقول: أنا وزوجي لا يوجد بيننا اتفاق أبداً، ما الحل؟

ارفعوا الظلم من بينكم، وأكثروا من الحسنات، حتى تكون أكثر من السيئات، كلنا نذنب، لكن لتكن الحسنات أكثر، اجعلوا النوافل أكثر حتى يكون الله معكم.

أحد الصالحين يقول: **إني لأعرف حالتي مع الله من خلق زوجتي**

إذا وجدتُ زوجتي تطيعني، وكان بيننا وداد، فمعنى ذلك: أني اليوم وضعي جيد مع الله، وإذا رأيت زوجتي لا يعجبها شيء، وأنا أفعل لها كل خير، وهي لا يعجبها ذلك فمعنى ذلك: أني لست جيداً مع الله.

كن مع الله كما يريد، يجعل أمورك كما تريد.

إذا كنت مع الله، فإن الله يكون معك.

أن يؤمِّن شاب مستقبله أمر صعب، لكن كن مع الله ورب العالمين يتكفّل لك مستقبلك في الدنيا والآخرة.

أسرة رب العالمين يعينها، مدينة رب العالمين يصلحها، إذا عادت الأمة الإسلامية إلى الله، فإن رب العالمين سيكون في عونها.

وهذه دعوة لنا جميعاً، لكي نحافظ على الفرائض، كما أمر بها الله، ونُكثِرَ من النوافل بقدر ما استطعنا، وإذا كان هناك بغي فلابد أن نرفعه.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

والحمد لله رب العالمين